موانع الحوار.. بين عقيدة الضعف وعقدة القوة
(سنة الحوار.. والمزاج المنحرف)

بقلم:
د. محمد عبد النبي
جامعة الجزائر

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

يُفترض أن يكون الحوار بين العقلاء سنة ماضية بين البشر، لا يعكر عليها مزاج يشذ، ولا يشوش على السير فيها أفهام عليلة، وما من نبي أو رسول إلا وكان له مع المعارضين حوار، يبتغي به إقناع من خالف أوعارض، ولأن الدين برسالاته لا يُكره أحدا على اعتناقه، ولوكان الأمر كذلك ما لبث نوح في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه إلا قليل، ولأن الإكراه بتعارض مع التكريم المنصوص عليه، ويتنافى مع إرسال الرسل، فالإكراه يستتبع العقاب العاجل، ولا يستدعي كل ذلك الجهد المبذول من الرسل لإنقاذ من بُعثوا إليهم.

لقد فُسح في المجال لمن توعّد بالإضلال، بعد حوار بين الله وبين الشيطان، تمرّد فيه على الأوامر، وذكر القرآن هذا الموقف منه في أكثر من موضع، ويتلوه كل من يقرأ إلى يوم الدين.

والقرآن نفسه لا يوجه إلى الحوار فحسب في قوله: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦]. وإنما يلفت الأنظار إلى القواسم المشتركة، التي ينبغي أن ينطلق منها المتحاورون. ويرشد الأتباع إلى التواضع في أثناء اللقاء، فيعلمهم أن يقولوا: ﴿**.. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [**سبأ**: ٢٤].أي أن الحوار هوالذي يوصل إلى الحقيقة، أما قبله فيفترض أن يتأدب الجميع بآدابه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك في تعليم التواضع مع الخصم، وعدم ذكر ما من شأنه أن يصد عن الحوار، فيقول: ﴿**قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [**سبأ**: ٢٥]. ولا شك أن الإشعار بالتواضع وعدم احتكار الحقيقة يؤنس الخصم، ولا يستفزه إلى الانسحاب المبكر، أوعدم القبول بإجراء اللقاء أصلا، وهوموقف

يدل على الثقة والثبات، بخلاف من يتبجح بامتلاك الحقيقة، فموقفه أقرب إلى الضعف والهشاشة.

يقل صاحب الظلال: «وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال، ليثير التدبر والتفكر في هدوء، لا تغشى عليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال والمحال..» وينبه سيد قطب إلى نقطة في غاية الأهمية حين يقول:"..فإنما هوهاد ومعلم، يبتغي هداهم وإرشادهم، لا إذلالهم وإفحامهم، لمجرد الإذلال والإفحام، الجدل على هذا النحوالمهذب الموحي، أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين، المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ، والاقتناع العميق.. ثم يختتم التعليق باستخلاص العبرة من هذه الآية، يوجهها إلى الدعاة فيقول: «.. وهونموذج من أدب الجدل، ينبغي تدبره من الدعاة».[1]

لا أجد نفسي معنيا-ولا المحور يسعف-بالدخول في متاهات التعريف بالعولمة والحوار، كمصطلحين سيتكرر ذكرهما كثيرا في هذا المجال، فالشروع في هذا الأمر قد يستغرقنا، فلا نحسن التخلص منه، وقد يغرقنا، فلا نكاد نصل إلى مبتغانا إلا بعد جهد جهيد، وإن كنت أعتقد أن العولمة هي وصف لتيار جارف وحالة عامة، تتحكم فيها مجموعة من الآليات الموضوعية والتاريخية، أكثر من كونها علما له أصول، أوفنا يخضع لمواصفات معينة، وضوابط محددة.

تقوم العلاقات الدولية منذ أمد على طرفين، على غني يقوده غناه إلى التقوِّي والاستقواء، وفقير يشغله فقره عن مزاحمة الكبار، بل قد يكون ضحية لمغامراتهم وأطماعهم، وقد درج الضعيف على ترقب الجديد يدهمه، وفي نفسه استعداد للرفض يُشهره، ذلك أن التوجس منه يولد حالة من

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن - دار الشروق - (٢٩٠٥/٥)

التحفز، يرد بها كل جديد يفد عليه، وفي اعتقاده أن المقصود بذاك الاختراع إنما هودينه وعقيدته، وكذلك كان الأمر مع المذياع ومع التلفاز، والزمن هوالذي يخفف من حدة موقف، قد يلجئه إلى التنازل، والتفريق بين ما يجوز وما لا يجوز، أوبين ما تشتد حرمته فيجتنب، وما تخف الملامة فيه أوتنعدم، فلا يتحرج في قربانه، وغالبا ما يتم التراجع الكلي أوالجزئي تحت إكراهات الواقع، ثم يُكسى برداء الإباحة أوالجواز، وليس نتيجة اقتناع حادث، أوتأصيل يستجد.

ولكن القوي لا يلتفت إلى المحاذير، ولا يتحسب للتأثيرات الجانبية، لأن الجديد هوالذي يخترعه، ولأن القوة التي يتسم بها تمكنه من التحكم فيما ينشئ ويخترع، والتقليلِ مما يمكن أن تحدثه، مما لا يرغب فيه أولا يناسبه.

أثبتت الأحداث أن الضعيف لا يمكنه أن يبقى بعيدا عما يحدث، أوأن يُحكم الحصار على نفسه، فلا يستقبل أي جديد، وبعض الدول التي فعلت ذلك، أوسعت إليه عانت شعوبها الأمرين، ولما أُزيح الستار أقبلت تلتهم بنهم كل ما مُنع عنها أوحُبست عنه، هذا في الوقت الذي كان يمكن فيه إحكام الطوق أوصناعة العزلة، أما مع الفورة التكنولوجية الحالية فتكاد تنعدم فرص التعتيم أوالحجب.

لدى القوي الذي يملك المنجز والمخترع إغراءات للقوة، تدفعه دوما للحفاظ على قوته، وللتوسيع من مجال يُكتسب، هذا إذا لم يكن لديه إلا العامل الاقتصادي يدفعه، أما إذا دخل العامل العقدي أوالأيديولوجي، فتوحي هذه القوة بإمداد هذا المجال بما يعتقده، وحينها يغدوالتوسع غطاء رساليا يمده بالتبرير والتشريع، لتجاوز الحرج الذي ينشأ عن كسر المبادئ أوتحطيم القواعد التي أشرف عليها القوي نفسه.

وللضعيف أيضا مخاوفه، بل هواجسه، تجعله يفسر معظم الظواهر بعقلية التخطيط المسبق أوالتآمر، وبعض هذا الكلام صحيح، لكن بعضه الآخر توحي به نفسية المغلوب المتوجس دوما من الأغيار، والضعفاء أيضا

يحتاجون إلى الغطاء، يبررون به التخوف، ويمنعون به الاتصال أوأي شكل من أشكال الحوار، بعضهم يتحجج بما يزعمه أمنا قوميا يخشى عليه الانكشاف، وآخرون يتعللون بالخيرية والحق اللذين يمنعان «التنازل» بقبول إجراء الحوار.

إن نفسية القوي أومزاج القوة لديه يمنعانه من تصور التكافؤ والندية مع الضعيف، فلا يسمح بحوار جدي أوحقيقي، فضلا عن المشاركة، والحوار إن جرى فهومحكوم بمجالات معينة من الناحية الموضوعية، أوحدود من الناحية الإجرائية لا ينبغي أن تتجاوز، وازدواجية المعايير- بل تعددها - إذ يمارسها، فهومن وحي هذه القوة، ومن تأثير المزاج المذكور، ولا يتقيد بالمبادئ إلا حين تخدمه، أما حين تحرجه أوتضايقه-فضلا عن أن تحاججه-فلا يجد أدنى حرج في تأويلها لصالحه، إن كان هناك مجال لتأويل يناور به، أويتجاوزها أصلا، دون أن يرف له جفن، فالعقاب - في مثل هذه الحالة - لا يطال إلا الصغار.

ينقل تشومسكي عن وثيقة من وثائق الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٨: «... ومهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة اختراع نمط علاقات يسمح لنا بالحفاظ على موقف الشقاق هذا... ومن أجل تنفيذ هذه المهمة فلا بد لنا من أن نتخلى عن مشاعرنا، ونتخلى عن أحلام يقظتنا، ويجب أن نركز انتباهنا على أي مكان له صلة بأهدافنا القومية المباشرة...يجب علينا أن نتوقف عن الحديث عن الغموض والأهداف غير الحقيقية، مثل حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وغرس الديموقراطية، ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي لا بد لنا أن نتعامل فيه بمفاهيم القوة بشكل مباشر...» يبدوأن جيلنا يعيش ذلك اليوم فعلا![1]

ومنطق القوي أومزاجه يقابله - في الجانب الآخر - قوة «الحق» أو«صواب» الأيديولوجيا، والقوالب العقدية التي يصنعها احتكار الحق المطلق والصواب تجعله يترفع بل يتكبر، ويحتقر الأغيار، متلبسا «بعزة» يفصِّلها على

---

(١) نعوم تشومسكي ما الذي يريده العم سام حقا- ترجمة:د.موسى برهوم-دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان - الأردن - الطبعة الأولى١٩٩٣- ص:١٢ .

المقاس، والخوف المستتر الناشئ عن الضعف المادي يجعله يحوط النفس بسياج من الأحكام، أغلبها احتياطي، أومختلف فيه، فتمتزج قوة «الحق» لديه، مع ضعف الواقع، في صنع واقع معقد، ورسم لوحة سريالية لا تكاد تُفك، وتعبر في الغالب عن نفس معلولة، ويكاد يستحيل إزاء هذا الوضع القبول بحوار أولقاء، إلا أن يكون تحت الضغوط والإكراه، وسنرى بأن القبول الذي ينشأ تحت هذا الظرف قد يكون قبولا حقيقيا تزامن مع لحظة الإلجاء، وقد يكون تكتيكيا يزول بزوال اللحظة المذكورة.

إن الأمة التي يعاني ثمانون بالمائة من أفرادها من العقد النفسية-حسب بعض الإحصاءات-لا يمكنها أن تنصر فكرة أوأن تحمل مشروعا بمثل هذه الأدواء والعلل، والإرث الذي تعاني منه يصعب إزالة آثاره أوالتخفيف من وقعه بين عشية وضحاها، لتأهيلها لتحمّل مشروع النهضة ورعايته، مع أن الكثيرين فكروا أوسعوا لحمله وقيادته.

يقول رئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية: «لا يمكن أن يخضع مجتمع بكامله للعلاج, ولكن نستطيع أن نساعده (إذا أقررنا بهذه النتيجة) على التحرر كي يتوصل إلى مستوى من المسؤولية، ومن الوعي الذاتي، يمكنه من حل مسائله الشائكة، وتكمن مسؤولية المفكر العربي في أن يحرر ذاته أولاً من رواسب الموروث الثقافي النرجسي, لكي ينقل رسالته ثانياً إلى مجتمعه، في إطار علمي قابل للجدل».[1]

الموانع الفكرية..وهواجس الضعيف

إن مما يزيد من تشوش فكر الضعيف أن الأحكام المطلقة التي يعتنقها لا يقتصر الأمر فيها على العدوالكافر، بل تشمل عدوا داخليا تصنعه هذه الأحكام أوالأوهام، وتلتمس له الأدلة، فيرتد وزرها إلى داخل الصف ذاته، بدعوى التخلية تمهيدا للتحلية، حفاظا على صفاء الأفكار والعقائد، وقد

---

(١) صحيفة الحياة اللندنية-١٠-٠٤-٢٠٠٤ .

يُلجأ في هذا السياق إلى إلحاق بعض المسائل العبادية بالعقائد، لإقصاء أكبر قدر ممكن ممن يظنون أنفسهم على سبيل نجاة، وهم ليسوكذلك ! والنتيجة أن الفوز في الدنيا والآخرة يختص بفئة محدودة أومعدودة، ويلتحق الآخرون بمن ضل، على أحسن تقدير.

ومن عوائق المسار التي تحجب عنا الحياة الكريمة وتمنع العطاء- ولوتحت غير الظلال التي نبغي-أن نحبس النفس والفكر على رؤية لا نرى في غيرها ميدانا لصواب، أومجالا لحراك، يتلوالنظر-ضرورة-أن يُعتقد بأن لا سبيل إلى نجاة إلا بإزاحة "الباطل"، والقفز على كرسيه ليغدوالحقَّ المطلق الذي لاحق سواه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التكفير أوالتبديع كان يماثله في فترات سابقة «التخوين» أوالاتهام بالرجعية والعمالة، وذلك بغرض الإقصاء، وتبرير الاحتكار، ولكل مرحلة أومجتمع مصطلحاته وطرق للتفرد يسلكها.

وكلما ازداد الضعيف ضعفا كلما ازداد احتماء بالقوالب التي يصنعها، وهروبا إلى الهواجس التي تنطوي عليها جوانحه، وحينها لا يفكر إلا في الوسائل التي يقارع بها "العدو" ولوبعد حين، ومما يزيد من تأزم الحالة إكراهات الداخل والخارج، وغلق دوائر الحراك، إذ كيف يُصدّق القوي في دعاوى الحوار التي يعلنها، وشعارات الديموقراطية والتعددية التي يرفعها، وتجليات قوته تطال البشر والمقدسات، في هذا البلد، أوفي ذاك.

إن استعراضات هذه القوة مع الإحساس بالغبن والظلم والتآمر لا تدع مجالا للتفكير الحر المتزن، وهذا ليس تبريرا للسلوك الخاطئ، بقدر ما هوتشخيص لواقع أليم تختلط فيه أخطاء جميع الأطراف، مع بعض الحق أوالصواب الذي يحمله الجميع أيضا، ولوبنسب متفاوتة أومتقاربة، وهوأيضا ليس تمييعا للمواقف بقدر ما هوتحديد لبعض الأدواء، وتوزيع للمسؤوليات التي يُفترض أن تُتحمل.

ومن ضمن ما يلجأ إليه الضعيف خطيئة التعميم، وهوأن يلجأ أحدنا

إلى تقييم شخص فيعامله ككتلة صماء-إن كان يكرهه-ماضيه كحاضره، لا يلتمس له عذرا في موقف يلتبس، ولا يجد لكلامه محملا، في قول تتعدد فيه المحامل، فإن أحبه خلع عليه من أوصاف الجمال ما يستر كل عيب، ومن المحامد أجملها، وإذا جيء إلى فترة-فيها ما يُعرف منها وما يُنكر-لم تُحتسب إلا المساوئ ترجح، في ميزان يُخسر الخصيم، ويستوفي للحبيب.

ومن ذلك أن يضع جميع الأقوياء-ممن ليسوعلى دينه-في سلة واحدة، ولا يملك الوقت ولا الإرادة ولا الإمكانية النفسية للتنظير والتفريق بين أنواع "الأعداء" ولا يريد أن يعرف فيما إذا كان بعضهم أوغلَ في العداوة، أوأكثر تفهما، كما أن الضعيف-بالمواصفات المذكورة والظروف المشار إليها-لا يفرق بين السلطة المعادية وبين مواطنيها، ومن هؤلاء طوائف قد تناصر قضية، أوتشايع موقفا.

إن منطق التعميم لا يؤمن بالنسب، ويتشبث بدلا من ذلك بالثنائيات، فالناس ما بين عدوأوحليف، والمتفهم من ضمن «الأعداء» يزعجه، وكثرة الألوان تشوش عليه، بينما يحتاج التمييز والتصنيف إلى إعمال العقل وإجهاد الذهن، فهذا متعاطف، وذاك متفهم، وثالث قد يتبنى همومك إلخ..

ولما كان التشدد «ملة» واحدة، ولما كان الانغلاق أهمَّ أسبابه، فقد يلتقي بعض المتدينين مع من سبق، في اختصار الألوان كلها إلى لونين لا ثالث لهما، ونسبة الخصم أوالعدوإلى الشر المطلق، فالغرب كله ملة واحدة، لا يبغون الخير لمسلم، يردد بعضهم هذه القولة المشهورة، ويتجاهلون التصنيف الرائع الذي ورد ذكره في القرآن عن اليهود: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً . . .** ﴾ [**آل عمران**: ٧٥].

ويلاحَظ كيف أن القرآن بدأ بذكر الصفة الإيجابية، ثم ذكر ما يقابلها.

وقال تعالى - في بيان موقف اليهود والنصارى من المسلمين -: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا**

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

إننا نرى الكثير منا يعجز عن تقديم يد العون في فلسطين، في حين يموت بعض الغربيين، وهم يعلنون تضامنهم الفعلي مع الفلسطينيين، ويبدوأن البعض منا يتعبه البحث والتدقيق في التفاصيل، وقد لا يجد حلا لبعض الظواهر، فيلجأ إلى التعميم، تخدمه في ذلك ظروف القهر والإذلال، ولا يفرق بين الحكومات التي تغلّب المصالح على المبادئ، وبين الشعوب التي لا يلتفت بعض أفرادها - قلوا أوكثروا - إلى المنطق الذي يقود المسؤولين فيها، ونجدةُ بعض الأحرار ينبغي أن تُدرج في هذا الإطار.

يتميز الخطاب القرآني بدقة تثير الإعجاب، فحين يحكي عن فسوق اليهود والنصارى أوعن تمردهم نراه ينص على القلة فيهم بأوصاف"الفريق" والطائفة" ومن ذلك قوله في سورة البقرة: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقال: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ

إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

ولا يقل القوي شذوذا عن الضعيف في هذا المجال، فله قوالبه التي يصنعها ويسوقها، وله أحكامه المطلقة التي يرسلها، فالمعتدل عنده والمتشدد سواء، وهوفي ذلك أيضا يبتغي التبسيط، ولا يخدمه التمييز أوالتصنيف، فإهمال الجميع - في المراحل الأولى من التعامل - لا يكلف شيئا، والتسفيه أو التجريم - في المراحل اللاحقة-تسويق دعائي- يمهد لما بعده، وليست له أثمان، وحين ينتفي العدوالحقيقي ويُبحث عن عدوموهوم- يُقنع المواطنين بالتراجع عن الحقوق الفردية والجماعية، ويبرر الفعل ورد الفعل - فلن يكون القوي بحاجة إلى تمرير سياسة، أو تبرير تصرف، أوإقناع حليف.

ويختلف القوي عن الضعيف في أن القوي يملك يدا باطشة تضرب حيث تشاء، وفي الوقت الذي تشاء، وبالقدر الذي تراه أنسب للردع، أوأجلب للطاولة، أوأدفع للاستسلام.

لن يضارَّ القوي بشيء أكثر من أن تُسحب منه مبررات الفعل أو رد الفعل، يملك التصرف فيها دوما، وكلما صرخ المغبون أمده بما يضاعف من صراخه، ولوخفَت الصراخ، وحُوِّلت طاقته إلى عمل هادئ لانتفض، ولا أزال أعتقد أن من بين ضحايا أحداث سبتمبر هوالعمل المنظم الذي شرعت في انتهاجه الأقليات العربية والإسلامية، وأخشى أن أجازف فأقول: بأن من أهداف هذا الحادث هوالوجود الإسلامي ذاته، وما يلحن به بعض قادة الغرب - ويسارع «الطيبون أوالخبثاء» للتخفيف من آثاره مراعاة للموقع وعملا بواجب التحفظ-يصرح به مثل «لوبان»، الذي حذر صراحة من هذا الوجود، الذي سينحاز حتما - حسب قوله - إلى بلده الأصلي، في حال قيام أي نزاع مسلح أوحرب، كما صرح شارون بأن السبب في تنامي الشعور «ضد السامية» هوهذا الوجود الإسلامي.

موانع التأويل..والهوى المتبع

ويُقصد بها الموانع التي تنشأ من خلال التعامل مع النصوص، حيث يتم في هذا التعامل إقحام الحالة الوجدانية والنفسية على النص، للخروج بالرأي الأوحد إن كان النص ظني الدلالة، والإيحاء - بمختلف الطرق - بأنه الحق الذي لا ينبغي أن يُعدل عنه، أوأن يُبتغى عنه بديلا.

لقد جرى النظر في بعض الآيات مثلاً من خلال رأي واحد، واستبعدت آراء أخرى بحجة ضعفها تارة، أومرجوحيتها تارة أخرى، وذلك لأن التفسير المختار يوافق النهج الذي اختير في السعي للإصلاح، وفي الطرف الآخر استبعد ظاهر النص عند القائلين به لمعارضته الصريحة للنهج الذي اختطّه أصحابه لأنفسهم في عدم الخوض فيما سوى الأمور العلمية، ذلك أن الوفاء للفكرة يسبق الوفاء للمبدأ حين تعترضه عقبات تفضي للحرج .

فـفي قـوله تعـالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ والظالمون، والفاسقون. [**المائدة**: ٤٤]

قال القرطبي: «نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء: وعلى هذا المعظم، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة، وقيل فيه إضمار، أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن، وجحداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهوكافر، قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا، قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي معتقداً ذلك ومستحلاً له، فأما من فعل ذلك وهومعتقد أنه مرتكب لمحرّم فهومن فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار.

وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهوكافر، فأما من حكم

بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلم يدخل في هذه الآية .

والصحيح الأول، إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة، واختاره النحاس، قال: ويدلّ على ذلك ثلاثة أشياء: منها أن اليهود قد ذُكروا قبل هذا في قوله: (للذين هادوا) فعاد الضمير عليهم، ومنها: أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده (وكتبنا عليهم) فهذا الضمير لليهود بإجماع، وأيضاً فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص .

فإن قال قائل: «من» إذا كانت للمجازاة فهي عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها؟ قيل له: «من» هنا بمعنى «الذي» مع ما ذكرناه من الأدلة، والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما انزل الله فأولئك هم الكافرون، فهذا من أحسن ما قيل في هذا.

وقيل: الكافرون للمسلمين والظالمون لليهود والفاسقون للنصارى، وهذا اختيار أبي بكر بن العربي...

قال طاووس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملّة ولكنه كفر دون كفر، وهذا يختلف إن حكم بما عنده على أنه من عند الله، فهوتبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعصية فهم ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في «الغفران للمذنبين...»(١)

وبالرغم من هذا التعدد في الأقوال والتفسيرات إلا أن الفكر الإسلامي أوبعضه ضاق بها، واقتصر على الرأي القائل بالتعميم مع الاحتفاظ بخصوص السبب، لحفظ الفرق وتبرير الاختلاف في الحكم، مع أن الرأي القائل بأن الآيات الثلاثة كلها في الكفار وُصف بأن عليه المعظم، ومع أن الرأي الآخر القائل بأنها في اليهود استُدلّ له بأدلة قوية، ووصفه القرطبي بأنه من أحسن ما قيل في هذا .

وحتى التعميم الذي اختير جُرد من قيوده، حيث وصفه أصحابه بأنه كفر دون كفر، أوأن ذلك مشروط بالجحود والاستحلال، ولم يُكتفى بالحصر

---

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - دار الكتب العلمية:(٦/١٩٠-١٩١) .

المعنوي، بل تعدّى ذلك إلى الحصر المادي، فقُصر الإعراض عن الحكم بما أنزل الله على الحكم بمعناه المعاصر، واستبعد الأفراد من التعميم، مع أن أصل السبب يدرجهم بطريق الأوّلية، أما الأولوية المشهرة فلم تراع الفروق والقيود التي عبّر عنها بعضهم مستنكراً بالأقواس التي تلُحق بالنص، وقد أصرّ البعض على هذا الرأي لمآل مناقض للمقاصد التي روعيت من قِبل من تحفّظ على الإطلاق، لأنه يتعارض مع فكرة عدم الخروج إذا أدت إلى الفتن، فيُحتمل عندها الضرر الأخفّ لتلافي المنكر الأشدّ المتوقع .

إن هذا الفكر الذي أصرّ على الرأي الوحيد لم يظهر خطؤه فقط للإخفاق الذي لازمه أوالويلات التي جرّها، ولكن لتراجع في الفكر حصل، وانحسار لخيار رُفع لواءه بقوّة، فتهاوى أيضاً بسرعة، واتخذ الغلوّ خندقاً آخر في بعض الحالات ليسقط في تداعيات لا علاقة لها بمشروع أوصحوة، وفي أحسن الأحوال كان التراجع في مسألة العلاقة مع الحكام، فبعد أن دُمغوا بما دمغوا به فترات طويلة من الزمن رُدمت الفجوة بعد ذلك-في بعض البلاد- في إطار نهج جديد لتجسير العلاقة، وهوتراجع وُسم بالعقلانية، لولا أنه استُغلّ أحياناً للتأصيل لرأي، أولتبرير موقف لا يخلومن شبهة.

لقد كان من النتائج الوخيمة للرؤية الوحيدة هوجر أكبر قدر من الناس إلى ساحتها عن طريق الإكراه النفسي والوجداني الذي تحدثه نصوص تساق لتأكيد فهم معيّن، واستُغلت بعض المقدمات الصحيحة للوصول إلى نتائج غير مسلمة، فقاعدة «من لم يكفر الكافر فهوكافر»: مقدمة صحيحة، لكنها في الكافر الذي لا شكّ في كفره، ممن وُلد ونشأ عليه، ولا تنطبق بالضرورة على غيره ممن يعيش في مجتمع إسلامي، وتبدر منه بوادر في الوصف مشابهة، ولا يزول عنه وصف الإسلام إلا بأدلة قاطعة ، غير أن نفراً أدرجوه ضمن القاعدة ليوسّعوا من دائرة المشمولين بالحكم، وأغرتهم مثل هذه القواعد في تعميم الأحكام بعد ذلك على الرعية نفسها، ليسهل في نظرهم البناء على أسس جديدة.

إن أصحاب هذا الطريق يتوسلون بالأحكام المطلقة، لا يقفون عند قيد، ولا يلتفتون إلى تخصيص، ولذلك تزعجهم التفاصيل، أوتحرجهم عند الحجاج، والحكم عندهم يتلوه حكم، والتكفير تتبعه الاستباحة، ومن تردد أوتأنى فلاستشعار الحرج، ومن كفر «الولاة» سبيلا لإزالة الغبش، استبطأ النصرة والنصر، فكفر الأنصار، ولذلك تراهم يعيشون في أزمة مع أنفسهم، أشد وأعتى من تلك التي يعيشونها مع مجتمعهم، وبعض من سعى للعلاج غدا جزءا من السقم، وبعض من جاهد من أجل البراء شعارا أعطى الولاء اظطرارا.

إن الترتيب الذي يحرِّم الالتزام بالشُعب الأدنى، أويخليه من الجدوى ترتيب لا يفتقد إلى الشرعية فحسب، بل يضاعف من العنت الذي قد يؤول بأصحابه يوما إلى التحلل، وأغرت الأحداث بمقارنات بين مرتد مفترض وكافر أصيل، أغفلت كل الفروق، لتُفسح الطريق لاستنتاج لا يرى في غير الخروج حلا، قد كانت أُولى مراحله وأسهلُها استباحة لمحرمات الأنفس والأعراض، تريد النيل من الهدف السهل، يُزاح من الطريق ابتداء، للوصول إلى من تترّس، وهيهات.

بعض التجارب في العالم الإسلامي (التجربة الماليزية) لا تسمح لهذا الوهم أن يستمر، بل تدفعه للتأسي، وإقامة ما أمكن من الشُّعب - في ظل الممكن والمتاح - هوالذي يخفف من أحمال النظريات وزحام الاظطرار، الذي يحيل الحياة أشبه بجحيم لا يحتمل، حتى ولوأُريد التخفيف من سطوته بالحلول الجزئية، أوبالوعود التي يستحيل الوفاء بها، وإن التعود على التعايش-في ظل مثل هذه التجربة - يقضي على أوهام التفرد، وادعاء احتكار الحق والصواب، وغناء التراث الذي ورثناه كفيل بإقناع من تردد، إذ لم تحفظ حضارة حقوق الأقليات فيها كما فعلت الحضارة الإسلامية، والمناصب التي تقلدها البعض من هؤلاء تسبق كل القوانين التي يتبجح بها قتلة الأطفال والشيوخ قديما وحديثا.

يفترض أن يرحب العقلاء بأي أوبة تجب ما قبلها، وتؤسس لسير جديد، ويفترض أن يُشجعوا بتوسيع آفاق الحوار البيني، وفتح مجالات للمشاركة، ويُفترض فيمن يؤوب أن لا يجعل من التجارب الخاطئة إرثا له يفاخر به، أورصيدا يسعى به لتسنّم أوتقلد ما لم يستطعه في الحقب الفائتة.

نعم، هي تجارب ينبغي أن تُفيد منها الأجيال الجديدة، لتجنب الأخطاء الفادحة، وتكرار المآسي التي تجعل من العداوات البينية عائقا أمام التنمية الحقيقية، التي يُرجى منها أن تنقذ الأمة من الوهدة السحيقة التي تتخبط فيها.

مرة أخرى نقول: من الفضائل أن يرجع من أخطأ عن ذنبه، وأن يقر بذلك -بغض النظر عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة - فيغيِّرَ من أسلوب أضر بالدعوة والدعاة، ولكن أن تتم العودة بنوع من التبرير يعيد الاعتبار، أكثر مما يشير إلى الجناية، فهوإقرار شكلي يلتف صاحبه عليه، وينسب محمدة إلى النفس قد لا يستحقها.

فمن مقدمة «المراجعات» التي أُعلنت، يقول كاتبها مخاطبا من يتوقعه يعترض على اجتهاد جديد يُتنكّر فيه لما سبق: «... ونرجوألاّ يصدهم عن هذه الدراسة أن يقول قائل: لماذا غيرتم اجتهادكم وفتواكم اليوم في بعض المسائل (إذن هواجتهاد - حتى ولوكان المجتهد من ذوي التخصصات العلمية - فيستحق صاحبه الأجر حتى وإن تسبب اجتهاده في المآسي والفتن؟ ولا تظنوا أنه في النهج كله، بل هوفي بعض المسائل، فلا يصدُق عليه وصف الانقلاب الشامل) نقول لمثل هذا السائل:إن المعصوم الوحيد هوالرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد، سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم (أي فلسنا أول ولا آخر من أخطأ) وإن الحق أحق أن يُتبع..وأن من هم خير منا من أئمة السلف قد غيروا اجتهاداتهم وفتاواهم (أي فلسنا في الأئمة بدعا في ذلك) فهذا الشافعي يغير بعض اجتهاداته وفتاويه (كذا) بعد قدومه إلى مصر،وأصبح له مذهبان: القديم والجديد (ونحن كذلك، فاعتبروا هذا التغير في المواقف من هذا القبيل، ولا يضر أن مذهبه القديم

لم تترتب عليه فتنة ولا دماء كمذهبنا)وهذا الإمام العظيم أحمد بن حنبل له في بعض المسائل عدة أقوال، كل قول ينقله إمام من تلاميذه عنه، ولم يغير هؤلاء الأئمة اجتهاداتهم عن هوى أوشهوة، ولكنهم غيروها على أسس علمية سليمة، وقواعد شرعية ثابتة (وهكذا أصبح مذهب هؤلاء هوالذي يحتاج إلى تزكية، وعلى أيدي أصحاب المراجعات) فالمجتهد له أن يغير فتواه إذا رأى المصلحة في ذلك، وهذا دليل قوة، وليس دليل ضعف..»[1] وهكذا يراد للإقرار أن يكون ذريعة لاستعادة القوة، وليس البريقِ فقط، وسيرى القارئ أن العنوان يندرج ضمن هذا الإيحاء، فلا يزال العمل الذي يخضع للمراجعة يحمل اسم الجهاد.

إن الرضى عن بعض من دين بالردة، وخلعَ أوصاف الشهادة على من قُتل، بعد أنهار من الفتن والدماء يقتضي الانسحاب والتوبة، ولا ينبغي أن يكون طريقا لتسنم مواقع عليا في الاتجاه المعاكس، وينبغي أن تسود ثقافة الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالخطيئة، بديلا لثقافة الإصرار وعدم التنازل، ومع ذلك كله ينبغي أن يُدرج هذا الأمر- بالرغم من المؤاخذات - ضمن الحوار البيني، إذا أُريد لساحة تُشرّع أبوابها أن تستوعبه.

الموانع الوجدانية..والتأصيل للفصام

من الموانع التي أسست لرفض اللقاء أوالحوار خلاف فقهي يبتغي التأصيل لأصل العلاقة بين المسلم والكافر في العصور الحاضرة، امتد ليأخذ بعدا فكريا، شاركت فيه كتابات تنتمي للصحوة، غلبت عليها إكراهات الواقع ووجدان جريح، أكثر مما غلب عليها النظر الشرعي الفسيح.

لقد ذهب البعض إلى القول بأن أصل العلاقة إنما هوالحرب، وأن السلم استثناء يؤكد القاعدة، مستندين في ذلك إلى آيات القتال، وإلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، في حروبه وغزواته، وإلى عالمية الإسلام التي

---

(١) حمدي عبد الرحمن عبد العظيم وآخرون - تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء - مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - الطبعة الأولى - ٢٠٠٢م ص: (٢٠).

تقتضي نشر الدعوة، وإزالة ما يعترض طريقها من كل من عاند أوتسلّط، وإلى ترجيح ما رجحه بعض المفسرين من إحكام في آية السيف، نسخت ما يُستنبط منه ترجيحا للرأي الآخر، ومن لم يقل بالنسخ قال بالمرحلية، أي أن هذه الآيات تختص فقط بمرحلة الاستضعاف، أما في مرحلة القوة والتمكين فالأصل هوالغزووالفتح، لنشر الإسلام في كل بقاع الأرض، يقول سيد قطب رحمه الله: « ...والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا، ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى، ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير الله، ينسون هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك منهجا ربانيا، العبودية فيه لله وحده، يواجه مناهج بشرية، العبودية فيها للعبيد..» وكان قبل ذلك بأسطر قد ذكر بأنه في هذه الحالة «.. يصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية، ويحرر البشر من العبودية للعباد، ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده».(١)

وكان قد قال عن المرحلية المشار إليها: «إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية، لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام، ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى، وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها، حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة، والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية».(٢)

لقد ساعد على هذا الرأيَ أجواءُ القهر التي أشاعها الاستعمار

---

(١) سيد قطب – الظلال: (٣/ ١٥٨٢).

(٢) المرجع نفسه: (٣/١٥٨١) .

والاستغلال بمختلف أشكالهما، وهورأي لم يغفل أصحابه عن الآيات أخرى، وإنما قالوا بنسخها، أوتأولوها.

ومن أشهر تلك الآيات قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]. وأكثر أهل التأويل على أن هذه الآية محكمة، كما قال القرطبي[1] بخلاف من ذهب إلى نسخها بآية السيف.

ومن فقه هذه الآيات ما استنبطه القرطبي من جواز صرف صدقة الفطر وصدقة التطوع على أهل القرابة من المشركين، وعلى أهل الذمة، قال: «.. وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم في قول من جعلها سُنّة، وهوأحد القولين عندنا، وهوقول أبي حنيفة على ما ذكرنا، نظراً إلى عموم الآية في البِرّ وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات، قال ابن عطيّة: وهذا الحكم متصوّر للمسلمين مع أهل ذمتهم ومع المسترقّين من الحربيّين، قلت: وفي التنزيل ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. والأسير في دار الإسلام لا يكون إلاَّ مشركاً، وقال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]. فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة..»[2]

وقد ذهب القرطبي وابن العربي في تفسير الإقساط مذهبا غير الذي يوحي به اللفظ، وقد يكون ثانويا، مع بقاء ما يتبادر منه عند الإطلاق، قال القرطبي: «﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي.»[3] وذكر القرطبي أيضا «أن إسماعيل ابن إسحاق

---

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: (٨/٥٩).
(٢) المصدر نفسه: (٣/٣٣٧).
(٣) المصدر نفسه: (٨/٥٩).

القاضي دخل عليه ذِمِّي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم.»

وقد ركز القرآن على ملحظ العدوان والإخراج من البيوت والأوطان في أكثر من موضع من آيات الكتاب، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة].

إن عدم المبادرة بالقتال من قبل الكفار، وعدم إخراج المؤمنين من ديارهم قيد لا يسمح إلا بالرد على العدوان، والقرآن إذ يوجه إلى ذلك ينص على الظروف المحيطة، فيذكر العدوان والإخراج، والمظاهرة عليه، وقد لا تكون كل هذه العوامل مرادة بالانفراد، ولكنه تنصيص كاشف على مبلغ العدوان الذي يمارسه العدو، وعدم التحرك للرد إزاء هذا الوضع مناف لطبائع الأشياء، ومع ذلك كله يحذر القرآن من ممارسة التجاوز في أثناء اللجوء إلى حق الدفاع عن النفس.

كما نهى القرآن عن مقاتلة الكفار في المسجد الحرام ابتداء، جزاء كفرهم، وإنما أباح لهم ذلك فقط في حال الدفاع عن النفس، وحفاظا على حرمة البيت، حتى لا يقال إن المسلمين هم أول من انتهك البيت الحرام.

وملحظ الإخراج ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]. وفي موضع آخر يستحث فيه مَن ظُلم نبيَّه أن يأذن له بالرد على العدوان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَث لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا

أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والرسول إذ يخشى عليهم من التقاعس وعدم الاستجابة للأمر بالقتال، يجيبه الأتباع بأن هناك دافعا آخر للجهاد، وهوالإخراج من البيوت والأولاد، وفي الآية إشارة إلى صعوبة القتال على النفس،بل إلى كره النفس له- كما في الآية الأخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ..﴾ [البقرة: ٢١٦] من خلال التحذير من عدم الاستجابة، ومن خلال التذكير بمظلمة الإخراج، وهذا الأمر يوحي بأن الجهاد ليس نزهة يمارسها المسلم كل حين، بل إن تقييده بما قُيِّد به-بالرغم من ظروف القهر والإخراج حينها- يوحي أيضا بالاستثناء فيه.

وفي آية أخرى يسعى القرآن إلى إقناع المسلمين بالرد على العدوان، ويستخدم المبررات لذلك فيقول: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] وفي هذا الإلحاح دليل آخر على نفور النفس من القتال، ولوردا للعدوان، ويستحثهم القرآن على ذلك بأن الكفار نكثوا الأيمان، وهم من بدأ بالقتال، وهموا بإخراج الرسول، فكيف لا تقاتلونهم؟ وإن كنتم تخشون بأسهم، فالله أحق وأولى وأجدر أن تخشوه فيما لوأعرضتم وأدبرتم.

والآية التي قبله أيضا ربطت القتال بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تبين بما لا يدع مجالا للشك بأن القتال ما جاء إلا بعد الإخراج من الديار والأوطان، ومحاولات الاغتيال، ونكث العهود والمواثيق.

وسواء اختلف الناس في هذه النقطة مع صاحب الظلال أم لم يختلفوا، وسواء كان رأيه راجحا أم مرجوحا، فإن له كلاما آخر أقل حدة، وأوفق مع مقاصد الإسلام، وإن كان المحبون والمتعاطفون لم يشهروا غير المقاطع التي

يريدون، قال رحمه الله في تعليقه على آيات الممتحنة: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك، وهوحتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم.»(١)

ويستدل الشيخ الشنقيطي على إحكامه بمفهوم آية أخرى، وبمراعاة المقاصد الشرعية بما يُرجى من الإحسان إلى الكفار المسالمين، قال: «.. وكذلك كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ بأن ذلك رخصة في حالة الخوف والضعف، مع اشتراط سلامة الداخل في القلب، فإن مفهومه أنها محكمة وباق العمل بها عند اللزوم، ومفهومه أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمنٍ منهم، وليس منهم قتال، وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم، وعدم معاداة من لم يعادهم..»(٢)

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أن التقسيم التقليدي المعروف بدار الحرب ودار الإسلام ليس تقسيما نصيا، وإنما هوتقسيم فقهي أملاه الواقع، ودعت إليه حاجة العصر آنذاك، «.. وترتبت عليه أحكام فقهية ليس من بينها حكم واحد يجيز العدوان، أويبيح بغير سبب ما حرمته الشريعة،

---

(١) سيد قطب - الظلال: (٣٥٤٤/٦)

(٢) الشنقيطي - أضواء البيان: (٣٣٢/٨)

وهوتقسيم لا يعلي من شأن عنصر أوجنس، على حساب سائر العناصر والأجناس..»[1]

إن هذا الكلام-في مجمله - يقطع الطريق على من يجعل الأصل في العلاقة الحرب، ويسعى لاستئصال من يخالف، ويؤسس لشرعية الحوار، ويعيد الفكرة الإسلامية إلى سعتها ورحابتها، ولكنه لا يلغي الحق في مقاومة الهيمنة ورد الاعتداء، كما هوديدن البعض اليوم، الذين يمنعون على الأمة حقا كفلته المواثيق الدولية نفسها، والغلومن جانب من يمتشق "العلمانية"سيفا هوالذي يدفع إلى غلومقابل، فيضيع الفكر المعتدل بين نزعة قهر تنشئ فكرا يرى العالم كله ساحة حرب، يُقتل فيها العدوأويذعن، وبين دعوة إلى المسالمة، لا تستثني أحدا، حتى وإن غَزى أوسَلب، يستلهمون تجربة غاندي، على وجاهة فيها قد لا تُنكر، ويديرون الظهر لسيرة تعطي الحق في دفع المعتدي، وترتب الأجر الجزيل على الشهادة دون الأرض والعرض، وحتى الأعراف الدولية التي يتنكر لها الآن، تعترف بحق في المقاومة، ينكره علينا من يدعي السبق أوالتجديد.

الموانع الاجتماعية..أوالتربية العرجاء

قد يكون بعض الدعاة للمواقف المتقابلة رهائن لتنشئة متعارضة، يخضع طوائف منهم فيها لتربية قاسية تارة، ومتزمتة تارة أخرى، يختلط فيها شظف العيش بتأويلات في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، وآخرون يعيشون بأجسامهم بين المسلمين، ووجدانهم سليب، يلعنون أمتهم صباح مساء، يتكلمون مع أولادهم بغير لغة الآباء والأجداد، ويأنفون من سيرة تذكر محمدا وصحبه، أوتستذكر مظالم المحتلين والمستغلين، فإذا سمعت للأوائل خشيتَ من أن ينقضوا عليك، لشدة انقباضهم، وعبوس وجوههم، وغرابة ما يطرحون، وإذا سمعت للآخرين أحسست بالاختناق والغربة، لهجانة

---

(١) (محمد سليم العوا - الفقه الإسلامي في طريق التجديد - المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق - الطبعة الثانية - ص: ١٩٧).

منطقهم، وضحالة فكرهم.

إن استمرار هذه الثنائية - وإن كانت ضرورية لصنع مشهد تعددي - إلا أنها قد تضر إذا استمرت وحدها في استقطاب واستنفار الأتباع، لصالح هذا الرأي أوذاك.

لقد استطاعت بعض الفضائيات أن تفتح الفضاء لمناقشات جادة، وأن تصرف بعض الكبت والقمع المزمنين، ومع ذلك قد يقف الأمر عند هذا الحد، إن لم يُتدارك بتربية واعية، يشترك في التأسيس لها الفكر المعتدل في كل الأمة، ولوكان من اتجاهات متعددة.

يستوقفني بعض أبنائي بسؤال عمن يحالفه الصواب ومن يجانبه، وهم يلاحظون الصخب الذي يرتفع في بعض البرامج الحوارية، فأجيبهم بأن كل واحد منهما يملك جزءا من الصواب، حتى أصرفهم عن حتمية الانحياز المطلق لطرف دون طرف، وقد أكون - من حيث الجملة - مع طرف معين، لكن هذا لا يمنع من أن أقتطف فكرة جميلة، أوملاحظة قيمة، أوطريقة تجذب، من الطرف المقابل، وقد تعودنا أن نقف بالمطلق مع من يرفع الشعار الذي نحب، حتى ولو أساء إليه.

إن من علامات هذه التربية العرجاء أن يُختصر الدين في الممنوعات تُلقى جزافا، يضيِّق من فسح المباح، وحين تُبنى دعوة على مثل هذا الأمر تمهِّد لمسالك الاضطرار، الذي يفضي غالبا إلى أنواع من العنف لا تُحمد، ومن ذلك ما نلاحظه من مواقف البعض تجاه قيمة الجمال، فبعض من يتصدى للدعوة يعادي كل ما يتعلق به، يبتدئ بالممنوع منه اتفاقا، ليشمل «تحريمه»ما لم يُتفق عليه احتياطا، وقد يوجد منهم من لا تستوقفه لوحة منه في الكون، تستجلب الإعجاب، فيُستثار قلب، يتبعه لسان، يلهج بذكر مَن برأ، ويستشعر بجمال الخلق جمالَ الخالق، ومثل هذا الموقف ينبئ عن ظلمة في النفس تُؤلف، فيزعجها الضياء، ولا تفرح بمن يحمله، أويدعوإليه.

إن الجمال قيمة في الكون تستل إعجاب السوي في لمح البصر، ولا

تُنظره حتى يُدركه، ومن يتصنعه لإثارة الإحساس به متكلف يستدر الإشفاق، أومتاجر بالقيم يفسد الأذواق، وقد ينحر الجمالَ دعيّ يُخل بأعراف الناس فيه، أوشقي ينكر على الخلق تذوق ما أبدع الخالق، فيجحده باصطناع القطيعة بين جمال في التشريع ننعم به، وإبداع في الكون يسوقنا إليه.

حين يستوقف الناسَ وجه جميل يُسرون به إعجابا أويعلنونه، وحين تأخذهم شمس الأصيل تغوص على عجل في صفحة البحر، تؤذن بالأفول، تزينها حمرة في الأفق، أوحين تطرب نفس لمعنى تبدعه قريحة في بيت شعر تحيله إلى مَثَل، أوفي ريشة رسام يحاكي لوحة في الكون، يحكي بها للناس قدرة تستوقفه، وجمالا يصوره وينقله، حين يُعجَب الناس بذلك أوبغيره لا يقترفون منكرا من القول أوالفعل، بل يبينون عن نفس جبلت على حب الجمال وتذوقه في صحائف الكون الجميل.

المسكن النظيف نأوي إليه توحي أناقته بالجمال، والتناسق بين متاع فيه يُنتقى ينطق بالجمال، والكسوة التي تُلبس، خالية من الأعلاق، بعيدة عن التنافر تنبئ عن جمال، والنظام الذي ينشئه احترام قوانين السير جمال، والسواقة المتعقِّلة فن، والناس تحب ذلك كله وتتحدث به، وحين تعم الفوضى ولا يبقى احترام لشيء من ذلك يغدوالتقيد بما هوأكبر أشق وأعسر.

لقد كان جرير بن عبد الله البجلي جميلا فائق الجمال، وكان يقال له يوسف الأمة، وقال بعض الشعراء يمدحه: لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة.

وقال رجل واصفا حبه للجمال ومبينا عن فطرة لا يحيد عنها إلاّ مكابر: إني أحب الجمال حتى في شِرع نعلي.

ولما حذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين من الكبر صرفه بعضهم- خوفا من الوقوع فيه أوالتلبس به - إلى ما يُلبس وما يُنتعل بالقول: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة» فصرفهم النبي عن الفهم السقيم أوالحرج البارد، بوضع الأمور في نصابها، فقال: «إن الله جميل يحب

الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.»[1]

والذين يدفعهم الاحتياط للتسوية بين الأشكال والصور دون التفات إلى النوايا والقصود: يسيئون إلى دين يفرق بين الشُّعب في الأوامر، ويميز بين الآثام في الدرجة، ويغفر اللمم، ويعفوعن كثير.

وليس كل من تمتع بما يملك خفيف الموازين، ولا كل أشعث أغبر لوأقسم على الله لأبره، والحديث يعرض لاستثناء لا يلتفت إليه الناس، قد يكون صاحبه في أعلى درجات القبول، وجاء التعبير عنه بما يفيد التقليل، وليس المراد أن النهج المحمود في ذلك هو سلوك هذا السبيل .

إنّ من كانت نفسه بغير جمال، لا يرى في الكون شيئا جميلا، والعكس صحيح، الأول يسعى للانتقام، وإن رفع لغيره شعارا، والثاني يبني على الموجود، يخشى عليه التلف، وبعض من ادعى الإصلاح الشامل هدم المعبد على من فيه، فلا الإصلاح تحقق، ولا المكاسب المحققة استمرت.

إن من تسوء علاقته بالجمال المبثوث في الكون، يكتسب حدة في مزاج، يسلمه بدوره إلى الأحكام المطلقة التي لا يقبل فيها النقاش، وهذه تؤدي بالضرورة إلى مزلق آخر لا يقل خطورة عما سبق، فأصحاب هذا المسلك يسدّون كل باب للحوار، ويوصدون أي منفذ للتفاهم، فالحق النهائي الذي يعتقدونه بجانبهم، والصواب المطلق الذي يدّعونه، يمنعانهم من أنصاف الحلول، التي يوصل إليها الحوار، ويحجزانهم عن أي قاعدة يجتمع عليها المختلفون.

ولئن كان هذا موقفهم من الحوار مع من الموافق، فالحوار مع المخالف في الدين لا جدوى تُرتجى منه، وعقيدته حينئذ - وليس اعتداؤه - هي التي تبيح دمه، أوتستوجب قتاله، وأدنى اقتراب منه يثير الشك، وقد يؤدي إلى التبرؤ، وحين لا يُقدر عليه، ترتد السهام على من يليه، ذلك أن هذا الفكر يخشى من الهدوء، أوالمهادنة، وإعلان العنف أوإشهاره هوالذي يرفع ذكره، ويبقيه صانعا للحدث، ولوفي الظاهر، يغطى به على من يُهاب حقيقة جانبه.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر- (٧٤/٢) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩٢،

إن في التجارب الإسلامية القريبة تراثا قد لا يلتفت إليه الكثيرون، وبعضهم يخدمه أن يُحجب أوأن يُطمس، فالدعوة النورسية - مثلا - مزيج من الفكر والتأمل والتربية، ولبديع الزمان النورسي نظرات في بعض القضايا سبق بها بعض من يماثله، ممن حمل هموم الأمة، وأحسب أنه عالج بعض الأدواء بالنفاذ إلى أسبابها، وحاول أن يقضي على بعض الظواهر بالتربية الطويلة النفس، وكان له في الجمال - الذي يعاديه بعضنا-كلاما بديعا، وهوإذ يفعل ذلك لا يكتفي بتأمل الجمال طريقا يتوسل به إلى صفات الجلال والكمال، بل يضيف إلى ذلك القبح نفسه، فينسب إليه فضيلة الدلالة على الجمال، يقول: «وتعال تأمل في هذا الجمال الزاهي، والحسن الباهر، ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع، في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره تواً، وجمّل الربيع كزهرة عظيمة واسعة، تغطي وجه الأرض بمئات الألوف من أزاهيره الجميلة، وكل زهرة منها في أروع زينة وأبدع جمال، بل جعله كسندانة زاهية وباقة زهر لطيفة أمامنا...

وهكذا فهذا الحسن المحيط الجاذب، وهذه النظافة العامة الخارقة، وهذا الميزان الحساس المهيمن الشامل، وهذا الانتظام والانسجام المعجز المحيط بكل شئ، حجة قاطعة على الوحدانية، وعلامة واضحة على التوحيد، أسطع من ضوء الشمس في رابعة النهار.»[1]

وحين يُنبَّه إلى أن هناك شرورا وقبحا في العالم لا تخطئه العين، وقد يشوش على الصورة الزاهية التي يرسمها لمن حوله، يجيب من غير تردد بأنه لولا صور القبح ما تجلّت صور الجمال: «إن قبحاً يكون سبباً لإنتاج أنواع من الجمال، أوسبباً لإظهارها، يعدّ كذلك جمالاً، وإن انعدام قبحٍ يؤدي إلى إخفاء

---

(١) النورسي:بديع الزمان - الشعاعات - ترجمة إحسان قاسم الصالحي- دار سوزلر للنشر - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٩٢: (٣٦/٤).

كثير من الجمال، والى عدم ظهوره، لايعدّ قبحاً واحداً، بل أضعافاً مضاعفة من القبح.»[1]

ويعرض في موضع آخر لحكمة التقابل بين القيم المتضادة فيقول: «.. إن تقابل الخير والشر في هذا الكون، واللذة والألم، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، والجمال والقبح، والهداية والضلالة، وتداخل بعضها ببعض إنما هي لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تُعرف اللذة، والضياء من دون ظلام إزاءه لا يبين جماله، ودرجات الحرارة تتحقق بوجود البرودة، وتصبح حقيقة واحدة من الجمال ألفاً من الحقائق بوجود القبح، بل يكتسب آلافا من أنواع الجمال ومراتب الحسن، ويختفي الكثير من لذائذ الجنة بعدم وجود جهنم، فقياسا على هذا يمكن أن يعرف كل شئ من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثمر حقيقة واحدة حقائقَ عدة».[2]

يُفترض فيمن يتأمل الجمال ويتذوقه، في تربية تعلي من قدره ولا تحقّره، أن يعتدل له مزاج يغلبه في الرضى وفي الغضب، وأن تطبع أفعالَه السماحة واليسر، وأن يكون ألين جانبا، وأعدل حالا ومقالا، وأقبل على النقاش والحوار، وأرضى بما يفضي إليه من نتائج، يزهوبرجحان رأيه، ولا يغتم إذا أُزيح أورُجح.

لعل من أهم الأسباب المباشرة لرفض الحوار اعتقاد جازم بامتلاك ناصية الحقيقة، وعدم التسليم - بلسان الحال أوالمقال - بالوقوع في الخطأ، وكثير من الحركات تتأبى على النقد، تحسبه انتقاصا من قدر، أونيلا من كرامة، وأكثر ما يظهر هذا الانحياز المطلق - الجالب للتعصب، والمستثير للعنف المادي أوالمعنوي-حين الكلام على الحق الذي بحوزتنا، أوعلى الرجال الذين حملوه، ممن نحب ونقدر.

---

(١) المرجع نفسه: (٤/٣٧).

(٢) المرجع نفسه: (٤/٢٩٠).

يذهب النورسي - في التجربة المشار إليها- إلى أصل هذا الداء، ليضع الإصبع عليه، ويحذر من خطورته: «.. إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا (أنا) فهويجوب بهم في وديان الضلالة، فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلاّ بترك (أنا) وحتى لوكانوا على حق وصواب في استعمالهم (أنا) فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم يعبدون النفس، لذا فان عدم ترك (أنا) بخس للحق تجاه خدمة الحق.»[1]

ويرشد إلى كيفية تطبيق هذه القاعدة فيقول: «عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: (إن مسلكي حق أوهوأفضل) ولكن لا يجوز لك أن تقول: (إن الحق هومسلكي أنا فحسب) لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكاً ولا حكماً يقضي على بطلان المسالك الأخرى..»[2]

ولما كان ادعاء احتكار الحقيقة أصلا لكثير من الشرور، فقد ربط بينه وبين ما يحدث من عداوة بين المؤمنين، وأرشدهم إلى الأولويات المتاحة في هذا المجال، فقال: «إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها، وحاول أن تعادي من هوأعدى عدوك وأشدّ ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون، واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شئ آخر.»

ولا يكتفي بالنهي عن ذلك، بل يرشد إلى الفعل الذي من شأنه أن يشل حركة الخصم، فمن طبيعة الخصومة أنها تغري بالمزيد، ومن شأن المتحفز لها أن يترقب أدنى خطأ أواستفزاز، يبرر به ردا مساويا في العنف أويفوق، فيقطع النورسي الطريق على ذلك كله ويقول: «.. وإن أردت أن تغلب

---

(١) النورسي: بديع الزمان - المكتوبات: (٣٤٢/٢).
(٢) المرجع نفسه

خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لواصبح مغلوباً- ظاهراً - فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر، بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته، وجعلته أخا لك، حتى لوكان لئيماً - ظاهراً - إلا انه كريم من حيث الإيمان..»[1]

إنّ من أُولى الشرور التي يؤدي إليها مسلك امتلاك الحقيقة أن يسعى مدّعيها إلى فرضها بالإكراه، الذي يمثل مظهرا من مظاهر العنف المقيت، ويجعل النورسي من نفسه مثالا في التواضع والتسامح، فيقول: «نعم! إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً، إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هوالاندماج في المجتمع، بالعجز والفقر والتواضع...»[2]

ويعرض لهذا الأمر ضمن مصطلح كثيرا ما أغوت مضامينه، لكنه يتقصد هذا الربط ليؤكد موقع «الجهاد» الحقيقي في دعوته، فيقول: «أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هوشأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً.»[3]

ويعرض لتفاصيل الخلاف بين السنة والشيعة-الذي لا يزال يثير الإحن والأحقاد، بل لا يزال إلى يوم الناس هذا يسيل الدماء - ويذكر في آخره أنه «لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء..»[4] ثم يخلص إلى توجيه نداء للطرفين بضرورة رفع هذا النزاع، وسد الطريق على من يستغله، لضرب

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) النورسي:بديع الزمان - اللمعات: (٢٥٩/٣).

(٣) النورسي:بديع الزمان - صيقل الإسلام: (٥٢٧/٨).

(٤) النورسي:بديع الزمان - اللمعات: (٣٧/٣).

أحدهما بالآخر، ويقول: «فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة، ويأيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكا لكم (يلاحظ هاهنا أن النورسي ينسب إلى كل فريق أهم ما يميزه عن الآخر، أوما يحب أن يُذكر به): «ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولاحقيقة فيه، وهوباطل ومضر في الوقت نفسه، وإن لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطّم تلك الأداة أيضا.»[1]

إن لفت الأنظار إلى مسألة الاستغلال فيها من الحرص بقدر ما فيها من ذكاء، ذلك أن أهل السياسة لا يزالون يستعملون هذه «الورقة» لخدمة هذا الغرض أوذاك، يظهرون المودة لطرف يوما، ثم يقربون الخصم الآخر في اليوم التالي، ولوالتزمت الأطراف المدعوة بفحوى هذا النداء - من النورسي ومن غيره - لعُصمت دماء كثيرة أُزهقت، وجهود كبيرة أُهدرت.

ويؤصل للخلاف، ويفرق بين ما يُحمد منه وما يُذم، حين يُسأل عن حديث يتكرر ذكره بين الناس (اختلاف أمتي رحمة) والذي يوحي ظاهره بأن الاختلاف - في حد ذاته - محمود، وبالذات «.. لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص الظلمة، الذين إذا حصل بينهم اتفاق.. اضطهدوا هؤلاء الضعفاء..» فيجيب-مبينا آداب الخلاف - بالقول: «إن الاختلاف الوارد في الحديث هوالاختلاف الإيجابي البنّاء المثبت، ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه، وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين، أوالطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل

---

(١) المرجع نفسه: (٣٨/٣) .

إيجابي بناء.»[1] ومبعث هذا النوع الثاني من الاختلاف المذموم: الأغراض الشخصية في التسلط والاستعلاء، «.. وإشباع نفوس فرعونية..فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولّد شرارة الفتن..»[2]

خصال القوة..واللهاث خلف المصالح

لقد كان يُظن أن القوة التي ورثت النفوذ البريطاني والفرنسي-بالزحام والمغالبة-لن تلجأ إلى أساليب الهيمنة المتبعة من قبل من سبق، وبخاصة أنها وقفت مع استقلال وتحرر بعض الشعوب العربية، وكان يُظن بأن الدساتير الدولية والمواثيق الأممية ستقف حائلا أمام الأطماع الاستعمارية، أوستحدّ منها كثيرا، وأن عهودا جديدة قد أقبلت مع إدبار المد الإمبراطوري في الدولتين المذكورتين، كما كان يُعتقد بأن استعمال القنبلة الذرية كان ردا مشروعا - ولومفرطا - في زمن الحرب، وأن الحرب على فيتنام كانت استثناء، سرعان ما زال بزوال الحرب، وكان يُعتقد - من بعض مثقفينا على الأقل - بأن وقوف أمريكا مع الكيان الإسرائيلي يمكن أن يخفف من وطأته مزاحمة اليهود على كسب النفوذ، في بلد مفتوح كأمريكا، من خلال السعي الحثيث لتشكيل ما يسمى باللوبي، وشراء الولاءات - إن أمكن - لتأليف القلوب!

غير أن كل هذه الظنون كانت في غير محلها، وكانت تنبئ عن تمنيات أكثر مما كانت تنبئ عن واقع فعلي، ولا يبعد أنها كانت إثما أصر البعض على اجتراحه وترداده، وذلك بنفي البعد الاستراتيجي في العلاقة المذكورة، والسخرية من الملمح العقائدي أوالأيديولوجي فيها.

لم تكن تلك الأفعال والتصرفات استثناء، وإنما كانت إشعارا بالشروع في المد الإمبراطوري، والمآل إليه محتوم، تفضي إليه آليات القوة الشاملة، ومزاج الظفر المتوالي، وهذا المد والمزاج إن لم يسخر من دعوات الحوار التي يطلقها الضعيف، فلن يلقي لها بالا، وإن تظاهر بالاهتمام، أوأبدى الاستعداد.

---

(١) النورسي: بديع الزمان - المكتوبات:٢(/٣٤٧-٣٤٨).

(٢) النورسي: بديع الزمان - اللمعات: (٣/٢٠٤-٢٠٥).

إن الدولة التي تقوم على أنقاض شعب أعزل، تقصيه لتعيش، وتبيده لتهنأ، ستظل تأثيرات هذا السلوك تحكم مشاعرها وأفعالها، وستظل ظروف النشأة النفسية والواقعية توجه سياستها، ولا يمكنها أن تفتح مع الآخرين حوارا جادا، فضلا عن تسمح بالمشاركة الفاعلة.

يقول «نك كولاكاوسكي:».. وفرضت الحكومة الأميركية، ولعقود عديدة، سياسة الاستيعاب والدمج على قبائل الأميركيين الأصليين، فأُجبر الأطفال على تبني اللغة الإنكليزية واللباس الغربي، كما تم حظر الاحتفالات التي تقام بها الطقوس القبلية مثل احتفال «رقصة الأشباح» لقبيلة السيوكس، إن مثل هذا الدمج والاستيعاب أمر مروّع كما ترى كارين بيرد-أولوسون الأستاذة في جامعة ولاية كاليفورنيا في مدينة نورث بريدج، وتنتمي هي ذاتها إلى قبيلة آسينبوان - ويناودوت .Assinoboine-Wyandot تقول: إنه استعمار، نحن وببساطة ضحايا الاستعمار الداخلي، فالناس ينسون جذورهم عبر سياسات الدمج، ويخامرهم الشعور بالعار إزاء هويتهم الحقيقية، لدينا أعلى معدل للانتحار بين الشباب بسبب أزمة الهوية»(١)

والدولة التي اعتُبر سجلها نظيفا بعدم لجوئها إلى احتلال بلدان الآخرين - بل هي التي وقعت ضحية للاحتلال - وببعض المبادئ التي عُرفت بها ونسبت إلى زعمائها، ذُهل عن حقيقة قيامها على أشتات الشعوب الأوروبية، التي لا تعتبر تقاليد الهيمنة والسيطرة غريبة عنها.

إن حياة الرفاه والكفاية التي حققتها الأرض الجديدة لهؤلاء (متوسط الدخل الأمريكي ٣٥ ألف دولار سنويا) والتطرف الجغرافي للموقع - بالإضافة إلى ما سبق - كل ذلك يعزل مواطنيها عن الشعوب الأخرى، وعن الاهتمام بهم، أوالإحساس بمعاناتهم، وما يشيع عن جهل هذا الشعب أوجهالته يفصله عن محيطه الأقرب في البلدات والولايات الأخرى، وينأى به عن شواغل السياسة الخارجية، وهذا يجعله يسلم قياده فيها لآلة الإعلام

---

(١) (موقع: - himag.com مايو- ٢٠٠٤).

ذات الوجه التعددي، والتي تصنع له رأيه، وتوجهه حسبما تريد.

جاء في دراسة تناولت الشخصية الأمريكية وما يتمتع به الفرد الأمريكي من حرية تهمل الآخر الذي في الداخل - فضلا عن ذاك الذي في الخارج - إلى حد الجهل: «فإذا أردنا أن نعطي مثالا على اللامبالاة والتحرر من قيود الآخر فإننا نأخذ المقابلة التي أجريت مع الرئيس بوش الابن عندما كان مرشحا، ففي تلك المقابلة الشهيرة كان بوش نموذجا للمواطن الأمريكي العادي الذي لايهتم بما لا يعنيه، ومن هنا فشله في الإجابة على أسئلة من بديهيات السياسة، وهوفشل فضائحي بالنسبة إلى مرشح لرئاسة القطب العالمي الأوحد، ومن الأمثلة أيضا ذلك الإحصاء الذي بين أن ٨٠٪ من الأميركيين يعتقدون أن باكستان وإيران هي دول عربية! وقس عليه.»[١]

إن الدولة التي تُبنى على القوة في نشأتها، وتلوّح بها أوتفاخر، عبر إنتاجها التلفزيوني والسينمائي لن تحاور ضعيفا، أوتنصر مظلوما، أوتندد بظالم، وكيف تفعل ذلك إذا كانت هي من يتلبس بالظلم من أول نشأته، ثم يزوِّر التاريخ لصالحه، وينتظر البعض منا أن يستعيد حقه عن طريق هذا المغتصب، يقول «"كولا كاوسكي»:.. تعتبر الروايات التاريخية التي ترويها أفلام رعاة البقر القديمة بشأن تاريخ الهنود الحمر غير صحيحة في سردها للحقائق، فالسكانُ الأصليون خسروا معظم أراضيهم وحريتهم في نهاية المطاف، وفي أغلب الأحيان بشكل سِلمي عبر التوقيع على اتفاقيات جائرة، حينما أراد المستوطنون البيض الاستيلاء على نفط أو مواد طبيعية أخرى في أراضي الهنود، فلقد كانوا يقومون وبكل بساطة بإرغام رئيس القبيلة على التوقيع على ورقة لا قيمة لها، ثم يقومون وفقا لهذه الورقة بإبعاد القبيلة كلها من أرضها، وقد وصف بلاك هوك زعيم قبيلة سوك Sauk، الذي عاش في أوائل القرن الـ١٩، ذلك التآمر على نحوبليغ مُعَبِّرا عن غضب السكان الأصليين إزاء ما كان يحدث لهم حينما قال متفجّعا ونادبا حظه:كل ما فعلته

---

(١) (موقع: - himag.comمايو - ٢٠٠٤).

هوأنني لمست الورقة بريشة إوزة دون أن أعرف أنني وبتلك الفعلة كنت أوافق على التنازل عن قريتي».[١]

وتاريخ العنف في أمريكا بتاريخ الاستيطان، ويُذكر من تعذيب وعنف في أبوغريب وغيره ليس استثناء، كما يحاول المسؤولون الأمريكيون أن يؤكدوه، ففي مقالة لها «بالواشنطن بوست» بتاريخ: ١٠-٠٥-٢٠٠٤) ذكرت الكاتبة آن أبيلبوم أن ممارسات الجنود الأمريكيين هي إفراز طبيعي للواقع السياسي الأمريكي، وقد استشهدت بكتاب »سفاحوهتلر الطيبون«، الذي صدر في الولايات المتحدة قبل سنوات، وربط بين معسكرات الموت النازية والشخصية القومية الألمانية، وأشارت إلى الرأي الذي ربط بين التسلط والشمولية في الاتحاد السوفييتي، وبين التقاليد الروسية القديمة لعبادة القيصر...»[٢]

وفي نفس المقال نقول عن تشومسكي في كتابه «الغزومستمر» ومما جاء فيه أن «أولئك المستوطنين اتخذوا من «فرجينيا» قاعدة انطلقوا منها للنهب والسلب، ولإبادة «البهائم الأجلاف» و«عبدة الشيطان»، وهم الهنود الذين كانوا قد استقبلوا المستوطنين الأوائل ورحبوا بهم، وبفضل كرمهم تمكنوا من البقاء أحياء. «ويضيف:».. أنهم استخدموا أكثر الوسائل خسّة ووحشية في إبادة الهنود، فقاموا باصطيادهم بالكلاب المتوحشة، وذبحوا نساءهم وأطفالهم وأتلفوا محاصيلهم وتعمدوا نشر مرض الجدري المميت بينهم من خلال توزيع بطانيات حاملة للعدوى عليهم(!)...»[٣]

إن المجتمع التي تملك القلة فيه معظم الثروات، والشركات التي تكتسح العالم باستثمارات مهولة ومشبوهة، كل هذا وغيره يورث جبروتا وطغيانا يمنعان من الالتفات إلى الآخرين، إلا على أساس أنهم متسولون، يُرمى إليهم ببعض الفتات بين الحين والآخر، أوكسالى يستأهلون الفقر والفاقة التي يعانون، وبلدانه ليست جديرة بالثروات الطبيعية التي تتمتع بها، وغالبا ما يُعبر

---

(١) (المرجع السابق).
(٢) مقال لفهمي هويدي. بالأهرام المصرية بتاريخ: ١٨-٠٥-٢٠٠٤
(٣) المقال نفسه.

عن ذلك بأخطاء الجغرافيا، والاستيلاءُ عليها - بطريق مباشر أوغير مباشر- تصحيح لهذا الخطأ، ألم تقل صوفي بسيس - في سياق حديثها عن الغرب كله كوحدة واحدة - بأن أوروبا «ومن خلال تأسيسها للتطهير والإقصاء العرقي في الأندلس[١] والاكتشاف للعالم الجديد، تجسد تحركها بقيادة إسبانيا في المراجل الأولى عبر ثلاثة عناوين: الدين (المسيحية)، والنقاء العرقي، والتفوق العرقي، وقد استخدمت هذه المسوِّغات لتبرير غزوالعالم والسيطرة عليه.»[٢]

وينقل نعوم تشومسكي عن مذكرة وضعتها وزارة الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٩ قول معدّها أومعدِّيها: «على العالم الثالث أن يحقق وظيفته الرئيسية كمصدر للمواد الخام، وسوق للمجتمعات الرأسمالية الصناعية»[٣]

إن الفكر الذي تبرر الغاية فيه الوسيلة، وينتفي عنه الوازع الأخلاقي، تصبح المصلحة فيه بديلا عن أي وازع أخلاقي، وحتى لو وُجد مثل هذا الوازع فسيُضحّى به على الفور إن تصادم مع المصلحة المذكورة، ومن هنا تأتي إشكالية الجانب العنصري في القيم التي يرفعها القوي، فهويحرص عليه حين تكون في بلده، ولمصلحة شعبه، ولكنه يدوس عليها إذا كانت خارج بلده، واضطرته المصلحة لتجاوزها.

صحيح أن الدول الأوروبية أقرب إلى العالم الثالث، من حيث تفهم بعض قضاياه وانشغالاته، وصحيح أنها شعوب تملك تاريخا حافلا وإرثا حضاريا عريقا، تبدوالولايات المتحدة أمامه كالطفل المولود توا، وصحيح أيضا أنها تخلت عن إرثها الإمبراطوري طوعا أوكرها، ولكن الصحيح أيضا أنها هي الأخرى قامت على الإقصاء والإبادة، ما يجعل الغرب بشقيه الأوروبي والأمريكي يشترك في مواصفات النشأة، وفي ذلك تقول صوفي بسيس:

---

(١) «قال اثنان من كبار المستشرقين الهولنديين: إن المعاناة التي يعيشها المسلمون في الغرب اليوم والتي دفعتهم إلى إخفاء إسلامهم خوفا من الملاحقات الأمنية، تبدوأشبه بالمعاناة التي واجهها من قبلهم الموريسكيون (مسلموالأندلس خلال القرن الـ١٦) حين تعرضوا للتهجير وللمحاكمات والملاحقات.» عن موقع: (islamonline.net).

(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون :قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net).

(٣) (نعوم تشومسكي - ما الذي يريده العم سام حقا - ص: ١٥).

«كان تزاوج المسيحية الأوروبية مع العرقية هوالذي شكل طبيعة الانتماء المزدوج الذي جعل غزوأميركا مشروعاً، ولإنجاح هذا الغزوالاستيطاني، ارتكب الأوروبيون أول إبادة بشرية في التاريخ، ففي أقل من ٣٠ سنة أبادوا ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من سكان الأنتيل الكبرى، مما أدى في منتصف القرن السادس عشر إلى انقراض شبه كلي للسكان الأصليين.»(١)

وعن الإقصاء تقول: «.. وتبعاً لهذه الأسطورة، فإن أوروبا وريثة الإغريق وروما هي حصراً مسيحية، ولا يوجد أي نفوذ آخر «ليلوثها»، ومن هنا فقد دأب المفكرون في عصر النهضة الأوروبية على اصطناع نسب مباشر مع أثينا، لتجاهل الوسيط الحضاري الإسلامي (الثري) في توريث أوروبا التراث اليوناني، وكان طرد الإسلام من أوروبا قد توافق وإقصاء الفكر الإسلامي من المجال الثقافي الأوروبي. هذا رغم الدور المميز للأندلس - لا سيما عبر فكر ابن رشد - ليس فقط في إيصال ولكن في إعادة قراءة الفلسفة الإغريقية، ولولا الإسلام الذي هيأ لها الظروف اللازمة لما تمكنت النهضة الأوروبية من مد خيوط نسب مميزة مع ذلك الإرث التي تدعي صلتها المباشرة به. وذلك في توكيد صارخ للقراءة الغربية الانتقائية للتاريخ. وفضلاً عن ذلك فإن الأوروبيين لم ينكروا فقط دور الحضارة الإسلامية في نقل وشرح التراث اليوناني، بل دمروا ما شيدته في الأندلس، فعقب طرد المسلمين واليهود منها حول الأوروبيون الأندلس المسلمة التي كانت معقل التسامح والعلم في أوروبا، إلى معقل للتطهير العرقي من خلال استحداث تعبير «نقاء الدم». فكان على كل من يتقدم لوظيفة عمومية أن يثبت نقاء عائلته من الإسلام واليهودية وذلك منذ أربعة أجيال على الأقل، وهذه القاعدة القانونية لم يتوقف العمل بها في إسبانيا إلا في ١٨٦٥».(٢)

كما أن أوروبا لا تزال تنظر إلى مستعمراتها السابقة بنفس النظرة الاستعمارية

---

(١) صوفي بسيس - (الغرب والآخرون:قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)

(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون: قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)

السابقة، وتعتبر أراضيها مجالا حيويا لها، لا ينبغي أن يزاحمها فيه أحد، ويظهر ذلك جليا حين الأزمات، أوحين تشتم رائحة الغريب المنافس.

لقد أضحى العامل الاقتصادي في العلاقات الدولية من الأهمية بمكان، والدول الكبرى لا تتسامح مع من يهدد مصالحها، أوينتقص من حقها فيها، وقد رأينا كيف أُطيح ببعض الزعماء الذين هددوا المصالح النفطية لبعض الدول الكبرى، ورأينا كيف يُضحى بالديموقراطية، وتغدوشعارا باليا تتقاذفه الرياح حين تتعارض مع المصالح الاستراتيجية لتلك الدول.

لقد تراجع العامل الديني الذي كان سائدا أيام الحروب الصليبية، ولكن قوانين العلمانية أضحت بديلا قويا، وقوتها مرادة لاعتبارات كثيرة موضوعية وواقعية، ولكنها تُستغل-كما تستغل آليات الديموقراطية - لتحقيق ما لا يستطيع العامل الديني أن يحققه، فتغدوالعلمانية-في بعض المراحل أوحين تكون شاملة بتعبير الدكتور المسيري[1] - ذراعا من أذرع الدين الذي حاربته، فقانون الحجاب الأخير في فرنسا يحمل طابعا عنصريا، إذ يخفي في طياته الإساءة للفرنسيين أنفسهم، من خلال التعامل مع بعضهم على أساس الدين، وليس على أساس المواطنة، وإن كان شعارها هوالذي تتم به خدمة الأجندة التي تحملها بعض القوى المؤثرة.

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى هذا التخبط، فتقول «صوفي بسيس»: « .. في خضم هذا التآكل عاد من جديد منطق نحن وهم حتى داخل الدول الغربية ذاتها، ففرنسا مثلاً لا تعتبر المسلمين من مواطنيها أجانب، كما لا تعتبرهم فرنسيين، فكان أن ابتدعت تعبير «الجيل الثاني» من الجالية المسلمة المغاربية أساساً..»[2]

إن القوى الكبرى حين تحرجها الضغوط أوالمصالح يبدوسلوكها مشابها لسلوك الضعيف الذي يعتمد الإكراه لإنجاز أهدافه، ففرض «نزع» الحجاب

---

(١) يقول المسيري: «العلمانية الشاملة مغرقة في المادية، وهي دين يؤمن بالمادة، ورؤية شاملة تعبر عن نفسها في كل مناحي الحياة..» حوار في الشرق الأوسط بتاريخ: (٠٥-٠٣-٢٠٠٤)

(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون:قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)

بالطريقة الفرنسية لا يختلف - على المستوى الحقوقي - عن فرض النقاب بالطريقة الطالبانية، غاية الأمر أن الأول ارتبط بدولة متقدمة قوية، سوّق الإعلام - التابع للقوي - قانونها في إطار العلمانية، ولوبالإكراه، والثاني ارتبط بالتخلف والضعف، وسوّق نفس الإعلام قانونها في إطار ديانة تتنامى "شيطنة" أتباعها كل حين.

كلنا نتذكر الحملة الإعلامية الضخمة للحفاظ على الآثار البوذية في أفغانستان، وكيف أن الناس والقادة والعلماء استُنفروا للضغط على الحكومة القائمة لثنيها عن تدمير تلك الآثار، ولكن العراق دُمِّر أكثر من مرة، بمن يحمل، وما يحمل، وتعرض في الحرب الأخيرة-بالإضافة إلى التدمير- لأكبر عملية سرقة آثار في التاريخ، ولا يظهر الاستنكار إلا خافتا أوحييا أوخائفا من قبل البعض، ذلك أن الذي يدمر هذه المرة هوالقوي، فإذا احتُج عليه انتفض، وقد يعاقِب، أما في"باميان" فمن نوى التدمير، أومن قام بالقليل منه الذي لا يكاد يظهر: فالضعيف الذي لا حول له ولا قوة ولا إعلام.

من الإجراءات الأخرى الفاضحة لازدواجية المعايير، ذلك السيف المسلط على رقاب كل من يتعرض بالنقد والتشكيك لما بات يعرف بالمحرقة، أوالهولوكست، وقد رأينا كيف أن بعض الأحرار في العالم لا ينفون حصولها، ولكنهم يشككون في أعداد الذي أحرقوا، ويناقشون استحالة حصول الرقم المشهور بأسلوب علمي بحت[1]، مستعينين في ذلك بالأرقام والوقائع والتصريحات، ومن أشهر هؤلاء المفكر الفرنسي «وجيه غارودي»[2]، ولكن القوى اليهودية وغيرها ممن يؤثر في الحياة السياسية في فرنسا لم يرقها التشكيك حتى على هذا المستوى، الذي لا يطال حقيقة الواقعة ذاتها، ولكنهم

---

(١) انظر في هذا السياق:تقرير لوشتر-ترجمة أيمن علي- مكتبة الشروق -القاهرة - الطبعة الأولى - (٢٠٠٠م) .

(٢) روجيه غارودي يُحاكم بسبب مناقشة قضية تاريخية في إطار حرية البحث العلمي، وسلمان رشدي الذي يطعن في ديانة أكثر من مليار مسلم يُستقبل من طرف الرئيس الأمريكي، ورئيس الوزراء البريطاني، وهوالشخص الذي لم يكن يسمع به أحد؟ كيف يتأتى لنا أن نمرر هذه المفارقة لأجيال الصاعدة، كي يقبلها الوجدان الجريح.

يخشون من فتح النقاش أصلا خوفا من أن يؤدي إلى فضح الكثير من الأسرار، والتغطية على المجازر الأبشع التي ارتكبت في الحروب العالمية وفي غيرها[1] وتابعوا الرجل في القضاء حتى هزموه، وكذلك فعلوا مع المؤرخ الإنجليزي ديفيد إرفنج، وبعض هؤلاء لم يشكك لا في الواقعة ولا في الأرقام والأعداد، ولكنه أخذ على الصهاينة استغلالهم للحدث، لتبرير كل ما يقدمون عليه من أعمال غير إنسانية في حق العرب والفلسطينيين، فكل ما يريدونه هوالوفاء" للضحايا" وعدم استغلال ذكراهم في قضاء مآرب دنيئة، وكأنهم يغلقون الباب أصلا لمن يشكك في الحدث، وفي كل ما يتعلق به، وهوبذلك يؤكدونه بأقوى مما يفعله من يناور به ويستغله.

لقد تفنن هذا القوي في اختراع الأعداء، واستغلالِ ذلك الاختراع في تحقيق ما يصبوإليه، من عقاب بالحصار أوبالحرب، كما برع في صناعة «الطابوات» التي تلامس المحرم دينيا، ومن هنا سمى فينكلنشتاين نورمن كتابه بصناعة الهولوكوست» :Finklestein Norman: the Holocaust Industry وتحدث عن المتاجرة بها أيضا، ومما قاله في هذا المجال: «لا أستطيع السماح لأحد باستغلال عذابات والديَّ والمتاجرة بهما مهما كان الهدف من ذلك.» علما بأنه يهودي، وقد تعرض والداه للاعتقال.

ومما كشفه من هذه الصناعة الجالبة للتأييد والمبررة لكل المظالم أن « ... التسويق المخطط لصناعة الهولوكوست بلغ درجة أن الهولوكوست النازية - حسب قول الباحث - هي المرجع التاريخي الأوحد تقريبا الذي يتجاوب

---

(١) يقول جارودي في هذا المجال: «إنها كارثة إنسانية - يقصد المحرقة - ولكنها مع الأسف لم تكن بلا سابقة، ذلك أن هتلر طبق على البيض ما طبقه الاستعمار الاستيطاني الأوروبي، طيلة خمسة قرون، على الملونين، ولنبدأ بالهنود الحمر، حيث أُبيد منهم ستون مليون إنسان، من أصل ثمانين مليون، ماتوا بسبب الأعمال القسرية الشاقة، والأوبئة التي فتكت بهم أكثر مما فتك السلاح، أما في إفريقيا فقد هُجِّر عشرون مليون إفريقي إلى أمريكا، كان النخاسون يقتلون عشرة أفارقة، كي يتمكنوا من احتجاز إفريقي واحد، وهكذا نجد أن تجارة الرقيق الأبيض كلفت إفريقيا من مائة إلى مائتي مليون قتيل، لكن الخرافة حملت العالم كله مهمة الحديث عن «أكبر عملية إبادة في التاريخ، كانت هذه الخرافة تلائم المستعمرين الأوروبيين أيضا، فهي تحول الأنظار عن جرائمهم - استئصال الهنود الحمر، تجارة الرقيق الأبيض، استعباد الأفارقة - كما تمحوأعمال ستالين القمعية الهمجية..» روجيه غارودي-الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية - دار هومة - الجزائر - ص: ١٤٨)

معه طلاب الجامعات الأميركية اليوم، حيث تشير الاستطلاعات إلى أن عدد الأميركيين الذين يمكنهم أن يعينوا هوية الهولوكوست يفوقون أولئك الذين يمكنهم أن يعينوا حادثة بيرل هاربور أوقصف اليابان بالقنابل النووية.»[١]

كما أن «معاداة السامية» التي كانت ورقة تُشهر في وجه كل من ينتقد سلوكا أوتصرفا للدولة العبرية، قد غدت قانونا وقعه الرئيس الأمريكي الرئيس الأمريكي جورج بوش، وذلك «لإحصاء الأعمال المعادية للسامية حول العالم، وتقويم مواقف الدول من هذه المسألة، هذا القانون كان الكونغرس قد مرره وبغالبية الأصوات بناء على طلب من النائب اليهودي توم لانتوس، وبدعم من عدد آخر من القادة اليهود، وهويطالب وزارة الخارجية الأميركية بإدراج كافة الأنشطة والممارسات التي تنتقد أوتتعرض لليهود في أي بقعة من بقاع الأرض ضمن تقرير سنوي حول حقوق الإنسان.»[٢]، وهذا يعني أن من يتعرض للكيان الإسرائيلي فقد تعرض لليهود، وأساء إلى السامية، مع أن العرب أيضا ساميون، وبهذا يكون الساميون اختُصروا في اليهود، واليهود اختصروا في «دولة إسرائيل» مع أن بعض اليهود غير راضين عن قيام دولة لليهود أصلا.

وبهذا القانون يكون الاتجاه إلى تجريم كل من يتجرأ على المراجعة قد «وصل إلى ذروته» وليس بقانون فابيوس[٣] رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق، كما اعتقد الدكتور المسيري، وهومعذور في ذلك، إذ لم يكن يدور في خلده أن يصل القمع في هذه المسألة إلى هذه الدرجة.

إن شريعة القوة هي التي تسود منذ أمد بعيد، ويزداد القوي شراسة وشراهة كلما ازداد ضعف الضعيف، وبخاصة في الظرف الذي تتمحض فيه القوة للظلم، ألم يقل تشومسكي: « ... إن أضعف الدول وأفقرها هي

---

(١) (البيان الإماراتية في عرض موجز للكتاب - الإثنين ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ٢٩ يوليو٢٠٠٢ -العدد ٢٢١

(٢) (عن موقع: aljazeera.net)

(٣) هذا القانون تبناه النائب الفرنسي الشيوعي «جيسو» ويحرم هذا القانون التشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية، وهوالذي حوكم بموجبه روجيه غارودي: عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ - دار الشروق - ١٩٩٧- ص: ٩٧)

التي تستثير الهستيريا العظمى للولايات المتحدة.»[1]

إن الانفراد بالهيمنة والصدارة هما اللذان يمنعان التدافع ، ويضيِّقان على الآخرين هوامش المناورة ، ولا تكتفي هذه القلة من البشر بالاستئثار بالقوة حتى تضيف إليها الثروة، لإحكام طوق النفوذ على باقي البشر.

إن هذا التوصيف من قبل الضعيف تزداد صدقيته حين يقول به غربي لا يعاني من عقدة الاضطهاد، ولا من هاجس نظرية المؤامرة، وعناوين بعض الكتب تشير إلى أن عقدة التفوق عند الغرب تتحكم في سياسته، ومع ذلك تعلق الجناية بالضعيف، ويُتهم برفض الآخر، ورفض الحوار معه، وهذه العقدة ليست مسألة تاريخية حتى يقال بضرورة تجاوزها ونسيان الماضي، بل تُرى ماثلة للعيان، في أكثر من بلد عربي يعاني من الاحتلال، ومن أبشع ممارساته، وعلى الهواء مباشرة، لتزداد عقدة الاضطهاد، تتوارثها أجيالنا جيلا بعد جيل، ولا يكتفي القوي بممارسة تفوقه، حروبا يشنها على الضعيف (هوالمسلم تحديدا)، في عصر العولمة وما بعد الحداثة، ولا يكتفي بأن يدع قوانين العولمة - إن كان لها قوانين، وبعضهم يتردد بين كونها عولمة أوأمركة، ألم يقل روزفلت: «إن أمركة العالم هي مصير وقدر أمتنا؟»[2] تفعل فعلها، وتنشر فكرها، وتعلي قيمها، بل يسخِّر قوته لتعديل مناهج هذا الضعيف، التي يعتبرها من أسباب تمرده عليه، وعلى قيمه.

يشير الباحث الإنجليزي توماس ماك إفيلي، Thomas MC Evilley في كتابه: «الهويات الثقافية في أزمة» إلى «أن الهوية الثقافية الغربية ذاتها تعاني من أزمة تعود إلى عامِلَيْن: أوَّلُهما كونها مسكونة بعقدة التفوُّق

---

(١) نعوم تشومسكي - ما الذي يريده العم سام - ص: ٢٦

(٢) «..لم يكن جون فايسك - فيلسوف التاريخ - هوأول من عبر عن طموح الولايات المتحدة مجسدا في رسالتها الخالدة التوسعية، وإنما عبّر عنها آخرون من رجال الدولة والزعماء السياسيين، مما يؤكد أنها جزء من ثقافة اجتماعية سائدة، وإن صيغت الرؤية في عبارات متباينة، ذلك أن فكرة: الأمريكيون هم شعب الله المختار عبّر عنها صراحة توماس جيفرسون في خطابه الرئاسي الأول عام١٨٠١، وسبقه أيضا جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة، إذ قال في خطاب رئاسته: إنه موكل بمهمة عهدها الله إلى الشعب الأمريكي..»: شوقي جلال-العقل الأمريكي يفكر-مكتبة مدبولي- القاهرة -٢٠٠٠م ص: ٢٢٧)

والاستعلاء على ما سواها من الهُويات الثقافية الأخرى، وثانيهما أن هذا الاستعلاء يتمازج مع إحساسَيْن شقيَّيْن: إحساس بذنب مقترف في حق دول العالم المُستعمرَة سابقا، (وحاليا؟) وما ترَتَّبَ عنه من آثار سيئة على ثقافاتها، وإحساس بما أدَّت إليه الحداثة، من خلال مظاهرها المتجلية في التقدم العلمي التكنولوجي والصناعي، من إخلال بالقيم الأخلاقية لتلك الثقافات»[1] ومن إخلال بالبشر أيضا.

إن الإحساس بالقوة وعقدة التفوق هذه - المرتبطة بالحضارة الغربية نفسها-هي التي تقود إلى نفي وإعدام الآخر، وحمايةُ وجود إسرائيل وأمنها ما هوإلا تكفير عن محاولات الإبادة والإبعاد، واليهود يعلمون ذلك ويوظفونه لصالحهم، يقول المسيري: « .. ولكن العنصر الحاسم في تصورنا في ظهور النزعة الإبادية هوالرؤية الغربية الحديثة للكون، وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية واحدية، تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب، وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت النموذج التفسيري الحاسم مع منتصف القرن التاسع عشر، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية...»[2]

ويقول جارودي: «أعطى الغرب الاستعماري منذ خمسة قرون - والعرض مستمر - مثال التطرف الأكثر فتكا، وهوالادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمي الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفي أوتدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية.»[3]

لا يعني سعينا لكشف هذه الموانع إحكام إغلاق الأبواب من جانبنا على أي نقاش أوحوار، أوالتمهيد لإعلان الرفض المسبق، أمام عوائق يتعسر التسلل من بينها لإثبات العكس، وإبداء حسن النية، فالحوار في ثقافتنا

---

(١) (عبد الرزاق الدواي - الحوار بين الثقافات: الأخلاقيات والشروط الغائبة - المركز العربي للدراسات المستقبلية - (mostakbaliat.com).

(٢) أيمن علي- تقرير لوشتر - ص:١٤ نقلا عن المسيري: ص: ٢٦ .

(٣) (روجيه جارودي - حفاروالقبور- دار الشروق - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ - ص:٢٢) .

حقيقة وممارسة، بل مبدأ ومنهج، قبل أن يكون وسيلة تُسلك إذا تجاوب الخصم أوالمنافس، أوتغلق حين يدبر أويصر على الخصومة.

وبالرغم من كل هذه العوائق المشار إليها فلا مناص من الإقرار بجدوى الحوار والعدل مع الأغيار، والمبدأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...** ﴾ [**العنكبوت** : ٤٦] وقوله ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [**المائدة** : ٨]

صحيح أن طوائف منا «تركز على نقاط الخلاف بيننا وبين الآخرين، وتضخمها تضخيما مضاعفا، مع أن الإنسان محكوم بالنسبية، ونقاط الخلاف عندما تُنسب إلى نقاط الاتفاق تأخذ حجمها الطبيعي، وعند إهمال نقاط الاتفاق تصبح نقاط الخلاف وحدها في الصورة، وتعمل عملها في تشويه الصورة حتى تصبح قاتمة تماما.»(١)

لكن إغفال الواقع وإهمال تلك العوائق يضعنا مع المخالف أمام طريق مسدود، فالجامعي الأمريكي إذا أراد أن يحاور وهو محمّل بقناعة تاريخية - كقناعته حول المحرقة - قد يدمجها مع قناعاته الدينية، أويرقى بها إلى مصاف القضايا التي يُمنع حولها النقاش: لا يمكن الذهاب معه في النقاش بعيدا.

والمتشبع بالرؤية الإسرائيلية للصراع يصعب أن يُفتح معه نقاش حول قضية فلسطين، وحين تحتضن مراكز الدراسات في أمريكا أوبعضها الرواية الصهيونية، وترهن السياسة الأمريكية ضمن هذه الرؤية أوالرواية:فمعنى أن ذلك أن فرص الحوار الحقيقي تضيق جدا أوقد تكاد تنعدم.

يقول عبد الرزاق الدواي: «لم يعُد خافيا، أن أشهر هؤلاء المُنظرين الغربيين المعاصرين، لا يترددون اليوم، في التصريح جهرا بأن المنتمين إلى الحضارة العربية الإسلامية بصفة خاصة، مُعادون في جوهرهم لقيم

---

(١) (عبد الحليم أبوشقة - نقد العقل المسلم: الأزمة والمخرج - دار القلم -الكويت - الطبعة الأولى - ٢٠٠١- ص ١٩٧-١٩٨).

الحداثة، بسب تطرُّفهم وميلهم الطبيعي إلى العنف، وبالتالي فالصراع ضدهم واقع وحتمي لا محالة، وفي هذا السياق عاد المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، في مقال له حديث العهد، ليُكَرِّرَ القول إن «الإسلام هوالحضارة الوحيدة التي ما زالت عصية على الاحتواء الغربي وعلى «الحداثة»، وعلى نفس المنوال والنغمة، يعزف مفكر أمريكي آخر ذائع الصيت، هوصامويل هنتنجتون، ويكتب «إن الصحوة الإسلامية هي رد فعل ضد الحداثة والتحديث والعولمة.»(١)

إن المشاعر الإنسانية نفسها قد ترجح كل ما عداها، ولن نعدم عاقلا هنا، أوحرا هناك، وبالرغم من ضخامة أحداث سبتمبر الشهيرة، وما جلبته للعرب والمسلمين من إهانات وتضييق، وانتهاك لبعض الحقوق طال الحياة الأمريكية نفسها، فإن بعض التعاطف الذي لقيه البعض منهم في خضم موجة الكره يقضي على التعميم المتبع، ويوجّه إلى ضرورة التفريق والتمييز.

إن بعض المثقفين تعلوأصواتهم بنقد السياسات الجارية، في الغرب عموما، وفي أمريكا على وجه الخصوص، وهؤلاء هم الذين ينبغي أن تقام معهم الجسور، وأن تُفتح معهم قنوات الحوار.

بعض الغربيين يملكون أفقا واسعا، وصدرا رحبا يتسع للحوار، ولا يضيقون بالمخالف، وقد يقرون بالخطأ، فهؤلاء أقرب إلينا من بعض من يرفع لواء العلمانية من أبناء جلدتنا، يخاصم بها بني جلدته، ويقاطع بها الدين والتراث، ولا يحتمل أن يُناقَش أوأن يُخالَف.

هناك تزمت يمنع الحوار، ويسد أبوابه، وهناك أيضا "تحلل" من الدين يأبى أصحابه أن يلتفتوا إلى الآخر، ولاإشكال في البحث عن كلمة سواء، نلتقي فيها مع الآخر المتعقل، تظللها أجواء السماحة والاعتدال، يقل المسيري:"... وإنني كمسلم ليس عندي إشكال مع العلمانية الجزئية، وإنما إشكاليتي

---

(١) (عبد الرزاق الدواي - الحوار بين الثقافات: الأخلاقيات والشروط الغائبة - المركز العربي للدراسات المستقبلية - mostakbaliat.com

الرئيسية مع العلمانية الشاملة، التي تُسقط القيمة وتتمحور حول المادة، إضافة إلى دعوتي لاكتشاف القاعدة الأخلاقية المشتركة بين الأديان والاتجاهات الإنسانية في الغرب، التي تتمثل في حركات مناهضة العولمة وأحزاب الخضر وبعض الاتجاهات الإنسانية الفلسفية، الذين اكتشفوا أن الكرة الأرضية غير قادرة على تحمل الحداثة الداروينية التي تقودها أميركا.»[1]

لقد برزت طائفة من الكتاب الغربيين، والأمريكيين على وجه الخصوص تنقد التطرف في الجانب الآخر، ويعتبر نعوم تشومسكي من أشد الفاضحين للسياسات الأمريكية-قديما وحديثا- والذي يطالع مقالاته وكتبه يخرج بانطباع أن هذه السياسات الحالية ليست إلا نتاجا طبيعيا لفكر وسلوك يعتمد على القوة، وينتهج أساليبها في الهيمنة والسيطرة على الآخرين، وأن سلوك الإدارة الأمريكية اليوم - من خلال المتدينين والمحافظين الجدد-ما هوإلا استمرار لنهج ثابت بغطاء إيديولوجي.

بل صرح الرجل بهذا الأمر حين قال في ندوة أقامتها جامعة مانشستر البريطانية السبت ٢٢-٥-٢٠٠٤: «إن السياسة الخارجية الأمريكية الحالية لا تختلف كثيرا عن تلك السياسات التي انتهجتها الإدارات المتعاقبة منذ الأربعينيات...» وأضاف: «... إن سر اختلاف الإدارة الأمريكية الحالية يكمن فقط في أن سياستها غبية ومتكبرة ومعلنة، هذا هوكل الفرق»[2] مشيرا إلى أنها تتعامل مع العالم من منطلق أنها القوى العظمى الوحيدة في العالم، خاصة بعد زوال الاتحاد السوفيتي السابق.

ثم وجدت أن الرجل يذهب أبعد من ذلك حين يصف ثقافة الشعب الأمريكي ذاتها بالتطرف، فيذكر أنها «.. واحدة من أكثر الثقافات الأصولية الدينية تطرفا في العالم، ولا أقصد هنا ثقافة الدولة، بل الثقافة الشعبية.»[3]

---

(١) حوار في صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ: ٠٥-٠٣-٢٠٠٤ .

(٢) عن موقع: (islamonline.net الإلكتروني).

(٣) نعوم تشومسكي - الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضاد -ترجمة: ريم منصور الأطرش - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ٢٠٠٣- (ص:٤٢) .

وقد حملت إلينا الأخبار أن رئيس مجلس الكنائس الإنجيلية في ألمانيا- فولفغانغ هوبارت حذّر من تنامي نفوذ المسيحيين اليمينيين المتعصبين في الولايات المتحدة، وقال إنهم يعطون شرعية لحسم النزاعات والخلافات بالعنف وقوة السلاح، وما حدث في العراق دليل واضح على خطهم السياسي المتطرف.. وحسب متابعته للأوضاع فان التيارات المسيحية المتطرفة هي التي تنموفي الولايات المتحدة على حساب استقرار الكنائس الأميركية، والسبب في ذلك أن تمرير التوجهات المتطرفة والأصولية أسهل في ظل مجتمعات معقدة، عدا عن ذلك فان كلمة الأصولية مرجعها أميركي ويعود إلى عام ١٩١٥، يومها كانت تروج مجموعة مسيحية متعصبة على صفحات صحيفة تحمل اسم The Fundamentals أفكارها وتوجهاتها وتحديد من هوالمسيحي الحقيقي.»[١]

إن مما تشير إليه هذه النقول هوالبساطة والغباء في الإدارة الأمريكية، وما ذهب إليه أخيرا بوب هربرت بصحيفة النيويورك تايمز يُعدّ أصرح وأخطر، فقد قال: «.. ومثلما هي الحال بالنسبة للعصابات التي يشكلها بعض الشباب، يكون الإخلاص هوكل شي، بالتأكيد، الفارق الكبير هوأن إدارة بوش أخطر بكثير من أي عصابة مراهقين..» وأضاف: «.. مع مراقبتي للنتائج الكارثية التي ترتبت عن سياسات بوش، لا في العراق وحسب بل داخليا أيضا، أشعر بالصدمة لدرجة عدم النضج التي تتمتع بها هذه الإدارة، بغض النظر عن عمر المسؤولين المعنيين فيها، وكأنما الأطفال فيها قد استولوا على دفة القيادة ودفعوا الراشدين فيها لمغادرة مناصبهم.»[٢]

قد يتوجب علينا أن نقرأ لهؤلاء، وأن ندفع الأجيال للوقوف على إنتاجهم، ليس بغرض الترف أوالتفكه، أو«للتضلع» من الكره للآخر، وإنما بهدف الإلمام بما يكتبه الأحرار عن مجتمعاتهم، فهم أدرى بمداخلها

---

(١) عن موقع: (إيلاف الإلكتروني - ١٦-١١ -٢٠٠٤).

(٢) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ :٢١-١١-٢٠٠٤ .

ومخارجها، وأدعى لأن يُسمع منهم، ويُقرأ لهم، وبغرض الاجتماع على كلمة سواء يُضغط بها على الفكر المتشدد أيا كان مصدره، وعلى اعتراض طريق المطامع التي يسعى القوي دوما لاقتناصها والظفر بها.